الفصل الأول

الأســـلمة

بين صناعة التحدى و البداية من الصفر

نحن أمام علامات إيجابية كثيرة ومضيئة لمشروع إسلامى انتفض بعزة المؤمن وغيرة المسلم ، وأبى أن يرى أمته تُمسخ هويتها ، ويُشوَّش على عقيدتها ، ويُحجَّم ولاؤها ، ويُهجر قرآنها ، ويُضيَّق على إسلامها ، فتضيق به الحياة والشارع .

فيُطرد من الدساتير ومن المحاكم ، ومن المصنع والمتجر .. ورويداً رويداً يباعَد بينه وبين عادات الناس وتصوراتهم .. ، وفى مساحات محدودة ، قد أوصدت بالحصار ، كمن الإسلام خاملاً داخل المساجد . وتاريخ ذلك مكتوب ومشهود لمن أراد الوقوف على ذلك .

* *

وإيجابية المشروع الإسلامى ، والذى تفجرت ينابيعه إثر سقوط الخلافة ، أنه هيأ الصخرة التى تتكسر عليها هذه الريح العاتية فيبتدر للنداء ، دعاة ورجال ، وعلماء نحسبهم ممن قال الله فيهم : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ .. ﴾ [1] . وليكونوا على قدر الله فى أمته ، ومصداقاً لقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم مَن خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » ، وليشكلوا مع مرور

---

(١) الأحزاب : ٢٣

الأيام ، نواة ذلك المشروع ، الذى استجمع إرادة التحدى من نوازع وأفئدة .. أمة ظلت وفية لإسلامها ، مهما دبَّ فيها من عوامل الضعف والانحلال .

فيتصدر هؤلاء الدعاة زمام التقدم بالأمة إلى حيث امتلاك الثقة بهذا الدين ، وإزالة الخبث الذى خالط فهمها وتصورها ، ودفع ما أراده الخبثاء من دس بالدين ما ليس فيه ، فظهر كما كان جلياً ناصع البياض ، ووفق ما فهمه الصحابة والصدر الأول من التابعين وتابعى التابعين .

ولأنه كان قد استمكن من هذه الأمة أعداؤها ، وفرضوا عليها شرائع غير شرعها ، وقوانين ونظم هى براء منها ، تطور هذا المشروع وتبلورت إرادة التحدى فيه ليصبح أداة لأسلمة الشارع ، الذى ما فتئ يؤكد أبناؤه أنهم مسلمون ، كذلك .. أسلمة السياسة التى يُساسون بها ، والقانون « المستورد » الذى يُحكمون به ... واقتصادهم الذى يتكسبون به ... ، فضلاً عن أسلمة العلوم والآداب التى يُربون عليها ويُنشئون .

وكان من قمة التحدى ، أن تبلور ذلك عملياً فى أجيال وعت ذلك وحصنت به فصمدت بقوة وإيمان أمام رياح التغيير العاتية ، وأخرى قد انتزعت انتزاعاً ، وبعد أن ظن المستغرب أنها باتت له ، وهيئت لنصرته .

فتفجرت روافد المشروع الإسلامى ، فى معاهد العلم ، التى أرادوها مشاعل للتغريب والعلمنة ، فأضحت رائدة فى تغذية حركة الإسلام والأسلمة .

وتلك هى - باختصار - فكرة الأسلمة ، حين تكون وكانت ، أداة لصناعة التحدى ، ضد رياح وتيارات التغريب والعلمنة ، وما تولد منها ، من تحلل وانتكاسات على جميع الأصعدة ، فضلاً عن أنها - الأسلمة - قد عملت على تغذية الدعوة الإسلامية ، وجندت لها دعاة على مستوى عال ، تمثلت فيهم جميع شرائح المجتمع ، وبعد أن كانت موقوفة ردحاً من الزمان على خريجى المعاهد الدينية ، مثل الأزهر ، وحركة هى كذلك ، كان من الطبيعى أن يكون دربها محفوفاً بالأشواك ، والجراح ، وأن يتولد ضدها عداء طبيعى ، يمليه اختلاف فى

الأهداف والولاءات ، والغايات ، وأن تتصاعد حدته مع تبلور رياح التغيير إلى نظم سياسية ارتأت العلمانية نظاماً وبناءً .

والرصيد الأساسى من هذا العداء ، يفطن إليه - بالضرورة - كل مَن سار على درب الإيمان ، فضلاً عن أن يتسلح بالعدة المكافئة المنضبطة ، وحتى لا تتعطل مسيرة دعوته ، أو يوقع به فى حبال المكر والدهاء ، والاستدراج والمكيدة ، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، وإلى أى مدى كانت تجربة المشروع الإسلامى تتعامل مع هذه الحقيقة .

نكرر لنؤكد ، لقد كان الإطار العام ، الذى يتمحور حوله المشروع الإسلامى ، هو بث روح التحدى ، والثقة فى نفوس المسلمين ، وأنه لا بديل عنه كنظام للحياة ، ومنجاة فى الآخرة .

وتلك هى صورته العامة على أنصعها ، تختزن فى مكنونها ، ملحمة خالدة من الجهد الدؤوب والعمل المضنى ، فى محاولة لأن يكون على مستوى الحدث وتحديات المرحلة التى تعيشها الأمة .

* *

ولكن ثمة أشياء فى الصورة ، تحاول أن تشوش على نقائها ، وتعمل - بغير قصد - على تعكير صفائها . من قبيل ذلك أن ثمة اجتهادات أو صياغات أو إسقاطات ، حاولت أن تضفى على المشروع - أو تلبسه - تصوراً وأُطراً خاصة إمعاناً - فيما تعتقده - فى أن ذلك سوف يزيد ويشعل من فاعلية القاعدين والسلبيين أو يحدد عناصر المعركة ، علّ ذلك يعجل بسرعة الحسم وتعرية المترصدين للمشروع الإسلامى ، فكان من ذلك : أن تم إضفاء تفاسير وتصورات شارطة ومحددة لإطار الأسلمة ومفهومها .

فجاء مَن أطلق مفهوم الأسلمة - بعموم اللفظ - ، فبدلاً من أن تكون إطاراً وأداة للإصلاح والتجديد أو للدفع والتحصين ، أصبح المراد أن تكون أداة

لإدخال الناس - الذين هم مسلمون بطبيعة الحال - من جديد فى الإسلام ، ومن ثَمَّ فالواجب تنظيم عملية الدخول ، حتى لا يتسرب إليها القاعدون والمرتضون حكم الطاغوت .

وبدلاً من أن ينطلق الدعاة ، من حيث اعتراف الناس على أنفسهم ومن كونهم مسلمين ، ثم يوظفون هذا الاعتراف فى الانطلاق بهم إلى سلم الصعود والمجاهدة ، بدلاً من ذلك ، جاء مَن يصادر هذا الاعتراف - بدون وجه حق - فأردى الأمة فى مهاوى الجاهلية والارتداد [1] .

وبدلاً من أن ينطلق من مشروعية انتماء أهل البلاد ، ومن أن يذود عن هذا الانتماء ومعتنقيه ، انسحب وسلّم الجماهير طواعية للآخرين ، وأعطاهم حق التكلم باسم الشعب ، وباسم القاعدة العريضة ، فلا شأن للشرذمة وبدينها الجديد .

وانطلاقاً من قاعدة جائرة ، تقول بانقطاع الأمة الإسلامية منذ قرون ، نودى بالعمل من جديد بتشكيل نواة هذه الأمة والبداية بها من جديد ، مع إعادة تطبيق قواعد العلاقات الاجتماعية بين المجتمع الموجود ونواة الدعوة الناشئة ، ومع نظرات المفاصلة ، والاستعلاء والتمايز ، قطعت آخر الخيوط والأواصر مع المجتمع المسلم الأم .

فتحوّل بذلك المشروع الإسلامى ، إلى أداة انقطاع عن حركة ماض لم تنقطع فيه بذور الإصلاح والتجديد ، وانفصال عن أمة حاضرة ، ما زال الإسلام ينبض في دمائها ، وإن حال الران ، وضعف وسائل التذكير ، والخوف في أحيان كثيرة دون الإفصاح عن هذه الطاقة الكامنة .

جاء مَن يبشر بالمشروع الإسلامى ، حاملاً معه شهادة وفاة الأمة ، ويؤسس

---

(١) وإنه لمن الضرورى التنويه على تلك الوقفة التاريخية ، وكيف تصدت قيادات مبكرة - من مسئولية - لتلك الموجة التكفيرية التى ولدت فى ظروف غير طبيعية مثل كتاب الأستاذ حسن الهضيبى « دعاة لا قضاة » .

على ركامها الحى ، حركة تبدأ من الصفر . وحتى يقفل الباب تماماً على محاولات الإصلاح على أرض الواقع ، تم إدخال شرط للمشروع الإسلامى ، بأنه حركة انقلابية ، لا تقبل بالترميم ، أو الترقيع ، أو أنصاف الحلول .

لقد كان من الخطأ بمكان ، أن انعكست حركة الصراع السياسى بين المشروع الإسلامى والنظام السياسى الحاكم - الذى ابتلى من جرائه الآلاف من خيرة الدعاة - أن انعكس هذا فى تقييم أمة بكاملها ، فكان جزاؤها ، أن يُسحب منها ويُصادر عليها ، الانتماء الأدنى للإسلام ، ولا يُقبل منها أى قدر منه ، ولا بد إذاً من العودة إلى الصفر .

وليتحول المشروع الإسلامى مع الأيام ، وبفضل الممارسات العملية للمنتمين إلى المشروع أو بعض منهم ، إلى أداة من أدوات القصر ، يبدأ وينتهى الالتزام بالدين عند حدود فئة أو جماعة أو حزب معيَّن .

وإزاء ذلك وجدت جماهير الأمة ، أن دين هؤلاء ليس بدينها ، وأنهم ربما يدعون إلى دين خاص بهم ، ومع الأيام ، توطدت علاقاتهم ومصائرهم ، أو مصير علاقتهم بدينهم بالآخرين ، فكرياً ونفسياً .

فأصبح من حق الآخرين ، عندما يتحدثون ، مناهضين أو مستعدين ، التحدث باسم الشعب ، وباسم الإسلام ، وهم على يقين بتصديق وتأييد الشعب لهم .

إننا عندما نثير تلك الحقائق ، لا نثيرها لكونها سلبيات تقدح فى مصداقية المتصدرين لهذا العبء الضخم ، خاصة أن سلبياتهم - وهم ليسوا بمعصومين - تتضاءل أمام الإيجابيات ، ثم أمام سلبيات وعورات الآخرين ، فضلاً عن الأخذ فى الاعتبار الظروف والضغوط التى مرّ بها دعاة المشروع .

ولكننا نثير ذلك ، حيث إننا بصدد البحث عن المؤثرات الحقيقية فى مسيرة ومستقبل الدعوة الإسلامية ومدى مسئولية العاملين - تنظيرياً وحركياً - فى معدل دفعها وفتح الثغرات المشجعة لنفوذ الآخرين وتعريض العمل الإسلامى للضرب والإعاقة المرة تلو الأخرى .

ولنا أن نتصور ، حينما لم يضبط مفهوم الأسلمة ومعياره ، فى مجتمع مسلم يمثل صلب المشروع الإسلامى ، كيف تحول إلى أداة انفصال وانقطاع عن محيط الأمة المحيطة بحركة الدعوة ، فضلاً عن كونها أمة مسلمة ، ثم إلى أداة للهدم، فلم يعترف بالأقدار الإيمانية التى عليها الأمة ، ثم إلى أداة قصر ، فكل مَن ليس منا فهو علينا ، أو مشكوك فى إسلامه .

فقل لى باللّه عليك ، ماذا بعد تجريد المشروع الإسلامى ، من بُعده الزمانى والمكانى والجماهيرى ، وليصبح الالتزام بالإسلام ، مقصوراً على فئة معينة .

فلماذا لا يُضرب ، ويُعاوَد ضربه ، المرة تلو المرة ؟

ثم لتبدأ حركة أسلمة من جديد ، تبدأ من الصفر ، فضلاً عن تعطل آليات تفعيل الدعوة الإسلامية .

* * *